

النظرية النسوية وصلتها بالأدب والنقد النسوي

د . عبد الله محمد الغفيس (*)

المقدمة :

ارتبطت النظرية النسوية منذ نشأتها في الغرب بمرجعيات فلسفية متعددة، مما أحدث اضطراباً وعدم نضج في هذه النظرية فلم تنتج أدباً ونقداً واضح المعالم.

ذلك أن الفكر الفلسفي للنسوية مرتبط بالسياسة وعلم الاجتماع وعلم النفس أكثر من ارتباطه بالأدب والنقد، ومع ذلك فقد استخدمت النظرية النسوية الأدب والنقد كسلاح من أسلحتها عندما أخضعت المبدعات والكاتبات لأهداف محددة تتبناها هذه النظرية النسوية أو تلك، وفقاً لخلفياتها الفلسفية المحكمة إليها.

من هنا جاء هذا البحث ليسلط الضوء على حقيقة الصلة بين الأدب والنقد والنظرية النسوية في بيئتها الأولى في الغرب، وفي رحلة انتقالها للثقافة والأدب العربي.

كلمات مفتاحية (نسوية، أدب، أدب عربي، نقد، فلسفة، نظرية نسوية، إبداع، كتابة إبداعية).

(*) أستاذ الأدب والنقد المساعد - قسم اللغة العربية وآدابها - كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية - بجامعة القصيم.

النظرية النسوية

لم يكن الإبداع النسائي أو الكتابات النسائية موضوعاً لتناولات النقاد أو مجالاً للدراسة في جامعات الغرب حتى ثمانينيات القرن الماضي؛ إذ لم تؤثر النسوية على الدراسات الأدبية في الغرب قبل تلك الفترة، وإنما كان الاشتغال فيها يعتمد على ما يكتبه المؤلفون من الرجال، وإن دخلت بعض النصوص النسائية في ستينيات القرن الماضي في الدرس الأكاديمي الإنجليزي لا على أنها كتابات نسوية، وإنما بكون كتابها من النساء فقط دون إثارة للقضايا النسوية، ككتابات (جورج إليوت)، واسمها الحقيقي (ماري آن إيفاس) و(جاين أوستن)، هذه الكتابات ركزت على الصورة التي تقدم بها المرأة في أعمال المؤلفين الرجال بسبب قلة النصوص التي كانت تكتبها النساء في تلك الفترة.

إلا أن تلك الصورة التي كان يقدمها الرجل في أعماله لم ترق لكثير من النسويات، فقد كانت صورة قائمة على النظرة الجنسية للمرأة، وأيضاً قائمة على تهميشها من جهة وتشبيهاها^(١) من جهة أخرى، ولما كانت نظرة تنادي بحقوقها وتخليصها من السلطة الأبوية التي كانت تزح تحت وطأتها، مما دفع بهؤلاء النسويات للمطالبة بأعمال تكتبها المرأة، وهذا ما دفع (كارمن كاليل) - وهي صاحبة أول دار نسائية للطباعة في لندن - أن توقف هذه الدار على نشر إبداع وكتابات المرأة، مما أحدث تحولاً في النظرة للإبداع النسوي، وتعامل المناهج النقدية في تلك الفترة معه تقييماً ونقداً^(٢).

"وتعتبر الناقدة الأمريكية (إيلين شوالتر) من أهم وأنجح الشخصيات التي ساهمت في إحداث هذا التحول، وأبرز أعمالها هو (أدبها الخاص بها: الروايات البريطانية من بروننتي ليسينج) (١٩٧٨م)، وفيه تقول: إن اختلاف حياة المرأة

(١) تشبيء المرأة، يعني معاملتها كسلعة أو كشيء، وإهمال شخصيتها وكرامتها وإنسانيتها.

(٢) ينظر: النسوية وما بعد النسوية، تأليف سارة جامبل، ترجمة: أحمد الشامي، مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (ص ١٩٥-١٩٨).

وواجباتها ينتج عنه بالضرورة مضمون مختلف في أعمالها الأدبية، وإن هناك من الملامح المشتركة بين هؤلاء المؤلفات ما يكفي لرسم تقاليد أدبية نسائية واضحة ومحددة، وتشير شوالتر إلى أننا عندما ننظر نظرة جامعة إلى الكاتبات نستطيع أن نلمس ملمحاً متصلاً على مستوى الخيال، وأن نلاحظ تكرار ظهور أنماط وموضوعات ومشاكل وصور معينة من جيل إلى جيل ...

وترى شوالتر أن كتابات المرأة تشبه الكتابات النابعة من أي ثقافة أخرى تابعة، وأنها تمر بثلاث مراحل من التطور: محاكاة الأشكال السائدة للتقاليد الأدبية المهيمنة، والاعتراض على هذه المعايير والقيم، وأخيراً اكتشاف الذات؛ أي البحث عن الهوية، وتصف شوالتر هذه المراحل بأوصاف المؤنثة والنسوية والأنثوية على التوالي، ومن الواضح أن النصوص التي تندرج تحت الوصف الثالث هي النصوص التي تفضلها إيلين شوالتر؛ لأن هذه النصوص لا تمثل عملية المحاكاة أو رد الفعل المقاوم وحسب، بل تقدم للمرأة أدباً خاصاً بها^(١).

وتكتمل هذه الرؤية لشوالتر حول أدب المرأة في كتابها (نحو بلاغة نسوية) والذي صدر عام (١٩٧٩م)، لتؤسس من خلاله لنقد نسوي خاص، لتكون بذلك أول كاتبة نسوية تقوم بهذا العمل "الذي تصف فيه طرق تصوير المرأة في النصوص التي يكتبها الرجل"^(٢).

وقد أكدت تلك الآراء أيضاً في كتابها (النقد النسوي الجديد) الذي صدر عام (١٩٨٦م)، حيث أكدت فيه على وضع مبادئ نقدية تركز على المرأة في إبداعها، وتحليل ذلك الإبداع.

(١) النسوية وما بعد النسوية، سارة جامبل (ص١٩٨-١٩٩).

(٢) المرجع السابق (ص٣٣٨).

النظرية النسوية

إلا أن شوالتر وفي مقال لها في نهاية القرن العشرين نشرته في صحيفة الجارديان اللندنية في ١١ مايو ١٩٩٩م، تعلن عن موقفها الجديد الذي يعبر عن تيار ما بعد النسوية المنادي بإزالة الحدود الفاصلة بين إبداع المرأة وإبداع الرجل في إشارة صريحة وواضحة لعدم فصل المسارات في الكتابة الإبداعية؛ حيث تقول: "مع اقترابنا من الألفية الجديدة ربما تكون كتابات المرأة البريطانية تدنو من نهاية تاريخها باعتبارها أدباً خاصاً بها، منفصلاً وله معالمه المميزة، إن الوعي بالذات الذي خلفه عقدان من النقد الأدبي النسوي جعل كتابات المرأة البريطانية ترتد إلى ذاتها بطريقة جديدة"^(١).

بهذه الرؤى تكون كتابات شوالتر مقياساً لتطور التيار الرئيسي في مجال النسوية الأدبية الأنجلو - أمريكية.

إلا أن المتأمل في واقع النسوية الغربية يتبين له "أن المذهب النسوي اليوم هو الرؤية النسوية الرئيسية في المجتمع الغربي المعاصر، ولكن رغم ذلك لا توجد مدرسة أو حركة نسائية واحدة تمثل هذا الفكر، وإنما توجد حركات كثيرة تنتمي إلى أيديولوجيات وفلسفات مختلفة، نمت بتتبع في الغرب وفي أقطار كثيرة في العالم، فهناك الفكر النسوي الليبرالي، والماركسي، والمادي، والسحاقي، والراديكالي، والفكر النسوي لحركة السود، كما أن هناك أيضاً اتجاهاً نسوياً جديداً تأثر بفلاسفة ما بعد الحداثة بدأ يظهر ودعا نفسه ما بعد النسوية"^(٢).

وفي هذا الاتجاه الجديد رفض لقيم ومبادئ فلاسفة الحداثة عن المرأة، وتصريح بأن الذات كينونة تشكلت بواسطة الخطابات، وأنها قادرة على مقاومة تشكلها، هذا الرفض والانتقاد للفلسفة التقليدية من فلاسفة ما بعد النسوية قدم

(١) نفس المرجع (ص ١٩٩).

(٢) الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي، خديجة العزيمي، دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م، (ص ٢١-٢٢).

لمفكرات الحركات النسوية إضاءة في محاولتهن تأسيس أبستمولوجيا نسوية، وفي تصديهن لانتقاد الفلسفة التقليدية بعامة، وأبستمولوجيا التنوير وفلسفة العلوم بخاصة، ما جعلهن يعتقدن أن تلك الأبستمولوجيا أقيمت على أسس أدت إلى إقصاء النساء عن مجال العقلانية، واعتبارهن بمستوى دوني وحرمانهن مما يتمتع به الرجال من حقوق^(١).

أما الكتابات عن النسوية أو ما يسمى بالخطاب النسوي في العالم العربي فلم يرق إلى أطروحات النقد النسوي الغربي، ولم يقترب منه، وإنما جاءت تلك الكتابات بشكل متواضع، فليس هنالك حضور حقيقي للفكر الفلسفي فيه، باستثناء بعض أعمال محدودة، وبقي في معظمه رهن قراءات ذاتية أحادية تركز على المرأة المضطهدة والضعيفة والمستغلة، ولم يتجاوز ثنائية التراث والمعاصرة، وتأرجح ما بين التقليد والتجديد؛ حيث اهتم بعض المفكرين بإحياء التراث الديني أو عقلنته ليلائم أوضاع المرأة المعاصرة، بينما اتخذ آخرون الفكر النسوي الغربي نموذجاً في معالجتهم لقضايا المرأة العربية، وتبنوا مقولات غريبة دون مراجعة للإطار المرجعي الذي تدور في فلكه، ولحدود قدرتها التفسيرية خارج سياقها الحضاري، وعجز الطرفان عن صياغة نظرية تجسد تصورهما لمجتمع أفضل، وتتضمن القيم الرئيسية التي تحتاجها عملية تغيير أوضاع النساء في العالم العربي^(٢).

وفي هذا السياق جاءت كتابات د. عبد الله الغدامي في كتبه المختلفة عن النسوية، وهي: (المرأة واللغة)، و(ثقافة الوهم)، و(الكتابة ضد الكتابة)، لتبحث في الأنساق الأبستمولوجية حول المرأة، والجسد، واللغة، وكذلك جاءت كتابات د. يمنى العيد في المجلات النقدية العربية، وكذلك كتابات د. خالدة سعيد في كتابيها

(١) ينظر المرجع السابق (ص ٨٧-٨٨).

(٢) الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي (ص ١١).

النظرية النسوية

(المرأة التحرر الإبداع) ١٩٩١م، و(في البدء كان المثنى) ٢٠٠٩م، "أما الإسهام الأكثر بروزاً في حقل النظرية النسوية في طبعها العربية فهو مؤتمر النقد الأدبي الذي عقدته الجمعية المصرية للنقد الأدبي التي كان يرأسها عز الدين إسماعيل، الذي عقد في نوفمبر عام ٢٠٠٠م، وطبعت بحوثه في كتب من أربعة أجزاء عام ٢٠٠٣م، وكان النقد النسوي أحد المحاور المهمة في هذا المؤتمر الذي قدمت فيه بحوث لنقاد عرب وغربيين، وضح أنهم في حالة اشتباك مباشر مع المفاهيم النظرية التي قدمها النقد النسوي"^(١).

هذا ما يتعلق بالنقد النسوي الفكري العربي، أما ما يتعلق بالنقد النسوي الأدبي الذي يتناول إبداع الكاتبات من النساء أو ما كتب عنهن من الناحية الأدبية، فإن ذلك جاء على نطاق محدود في تلك المؤلفات التي تتناول علاقة الإبداع بالملكات الخاصة بالمرأة، والمشاركات الفنية لإبداعها مع الرجل، وأوجه التشاكل والتباين فيما بينهما من الناحية الجنوسية^(٢).

ولعل مرد ذلك هو أن ما كتب من نقد نسوي إنما كان تابعاً ومتأثراً بما كتب في الغرب، والذي انصب جله حول النظرية النسوية وإشكالاتها قبولاً ورفضاً من

(١) النقد النسوي وبناء المفاهيم المضادة، أ.د. أحمد صبرة، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، طبعة ٢٠١٦م، (ص ١٤).

(٢) الجنوسة (النوع الاجتماعي) أو الجندر في اللغة الإنجليزية (Gender): هي تعبير يطلق يعبر به عن حالتَي الذكورة والأنوثة بكل أبعادهما ودلالاتهما، وما يتصل بهما من اشتقاقات. ينظر: المواطنة في لبنان، لأنطوان الفرزلي، دار الجديد، بيروت، ٢٠٠٠م، (ص ٣).

"إن الجنوسة تتشكل كمجموعة من المعايير الاجتماعية حول السلوك الخاص للأفراد حسب جنسهم، إن كلمة (جنس) كما هو واضح ذات دلالة بيولوجية، بينما كلمة (الجنوسة) ذات دلالة نفسية اجتماعية"، الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي، خديجة العزيزي (ص ٣١).

الناحية الفكرية عبر مدارسها ومناهجها المختلفة، مما جعل النظرية النسوية توصف "بأنها نظرية مرتحلة بسبب كثرة المدارس التي أسهمت فيها، وبسبب تنوعها وسرعة تطورها وتغيرها من شخص إلى آخر، ومن آن إلى آن"^(١).

إلا أنه من الأهمية بمكان أن أشير إلى حجم الدراسات العربية التي تناولت الإبداع النسائي الشعري في أدبنا العربي قديماً وحديثاً باعتباره نسقاً شعرياً خاصاً، وذلك فيما وقفت عليه من دراسات، حيث إن هناك قلة في الدراسات التي تناولت شعر المرأة مقارنة بالدراسات التي تناولت شعر الرجل في أدبنا العربي قديماً وحديثاً، ففي القديم لا نجد احتفاءً بشعر المرأة عند أصحاب الطبقات والمجموعات الشعرية، سوى ما نجده عند أولئك المؤلفين في كتب التاريخ الأدبي، كأبي الفرج الأصفهاني وابن قتيبة وابن الأثير والسيوطي والمرزباني وغيرهم، باعتبارها مكوناً من مكونات ذلك التاريخ بأحداثه وتجلياته، كحديثهم عن الخنساء وليلى الأخيلية وغيرهما.

أما في الأدب العربي الحديث سواء ما ارتبط منه بالنظرية النسوية وتأثر بها، أو لم يتأثر بأجنداتها، فإن ما استطعت حصره من تلك المؤلفات التي تناولت شعر المرأة قديماً وحديثاً يعد قليلاً قياساً بحركة التأليف المتدفقة في عالمنا العربي، وهي على النحو التالي مرتبة حسب تاريخ طباعتها:

١. المرأة في الشعر الجاهلي، د. علي الهاشمي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٠م.

٢. الخنساء، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣. الشاعرة العربية المعاصرة، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

(١) الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي (ص ٢٩).

النظرية النسوية

٤. المرأة في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، ١٩٧٢م.
٥. الشاعرات من النساء، سليم التتير، دار الكتاب العربي، سوريا، ١٩٨٨م.
٦. الشعر النسائي في أدبنا القديم، د. مي يوسف خليف، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م.
٧. شعر المرأة في العصر العباسي، د. عبد الفتاح عثمان، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٤م.

بالإضافة إلى طائفة من الدراسات الأكاديمية في الجامعات العربية خاصة في المغرب العربي، وبعض المقالات في الصحف والمجلات الأدبية العربية. هذه القلة في الدراسات مقارنة بالدراسات الموجهة لشعر الرجل، أحدثت تبايناً في النظرة إلى شعر المرأة وماهيته وخصائصه، لذا بقي شعر المرأة بحاجة إلى مواصلة البحث فيه وتجليه ظواهره وسماته الفنية عبر رحلة ممتدة في الدرس الأدبي العربي.

فعلى الرغم من أن الأدب في الأساس إنما هو تعبير عن الحالات الإنسانية بصرف النظر عن جنس كاتبه، إلا أن عدد النصوص الإبداعية للرجال هي أضعاف أضعاف النصوص الإبداعية للنساء، وهذه حقيقة لا بد من التسليم بها؛ حيث يمثل الشعر النسوي/ النسائي نسبة محدودة في المدونة الشعرية العالمية؛ إذ لم تستطع النساء "احتلال أكثر من مساحة تتراوح بين ٥% و ١٠% من خريطة الإبداع الشعري الذي بدا وكأنه حكراً على الرجال في مختلف بلاد العالم .. وفي حين كان الانحسار بالمرصاد لتيارات الشعر النسوي، رغم أن الحساسية الشعرية العالية المرتبطة عادة سواء بالشعر أو بالمرأة كان من الممكن أن تخوض في الأغوار الشخصية والفردية العميقة للمرأة، ثم تنطلق بعد ذلك إلى آفاق لم يبلغها

الشعر من قبل، ولكن هذا لم يحدث؛ لأنه لم يترك أية بصمات تدل على وجود تيار جارف يمثله، برغم أن الإبداع الروائي النسوي كان قد سبق في تمهيد الطريق له^(١).

وإن رد بعض الكاتبات سبب ذلك إلى خشية المرأة من الرجل وتواريتها عن مواجهة المجتمع، بل وصل الأمر ببعضهن لاتهام دور النشر بأنها لا تهتم بالمبدعات من النساء، وإنما تهتم بمن يدر الدخل لها، بغض النظر عن جودة المحتوى، لذلك فهي تركز على إبداع الرجل وتهمل إبداع المرأة^(٢).

لنأتي المطالبة بتمكين المرأة من التعبير عن نفسها وحقوقها في ظل سطوة ذكورية تقف في وجه إبداعها وكتاباتهما، ذلك أن الإبداع النسائي يرتبط بالأنا المستقلة في شخصيتها وكيونتها وانعتاقها من النظرة الدونية التي ارتبطت بالمرأة في الثقافات المختلفة، وهي لحظة تدرك فيها المرأة ذاتها من خلال الوعي بأن لديها القدرة كي تصنع لنفسها كياناً مستقلاً إبداعياً وثقافياً منفكاً عن تسلط الرجل وذكوريته المجحفة في حقها وكيانها، لتتحول بذلك من مفعول به إلى فاعل.

وقد ربطت (جوليان كرستيفا) الناقدة الفرنسية بين ثورة النساء على اللغة الذكورية التي وصفتها بأنها ثورة شاعرية، وبين الثورات الاجتماعية التي لا يتغير الفرد فيها حتى يتغير الآخرون^(٣).

(١) أزمة الأدب النسوي، تأليف: د. نبيل راغب، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م، (ص١٣٣).

(٢) ينظر مقالة الأدب النسوي وهموم المبدعات، رشا كير وأمينة عادل، مجلة البيان، عدد يوليو ٢٠١٤م.

(٣) ينظر: الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي، خديجة العزيمي (ص٢١٨).

النظرية النسوية

وهذا ما يؤكد وجود مفارقة في بعض الشعر النسوي، تتمثل في أنه وإن بدت القصيدة النسائية رقيقة ومرهفة وذات عاطفة متدفقة على مستوى الشكل الفني والجمالي، فإن مضمونها الخفي ينطوي على غضب أنثوي متفجر يمكن أن نقف عليه عند غوصنا في أعماق تلك القصيدة، في موقفها من سلطة الرجل، ورؤيتها لانعتاق المرأة من ذلك الإيسار.

كما يرتبط الإبداع النسائي بطبيعة جنس المرأة وتكوينها البيولوجي، فهما اللذان يحددان صفاتها وأوضاعها ومشاكلها، كما تتادي بذلك بعض الدراسات النفسية، إلا أن هناك من يرى أن السمات الأنثوية للمرأة والتي تنعكس على طبيعة كتاباتها لا ترتبط بجنس المرأة بقدر ارتباطها بالحياة الاجتماعية والثقافية التي تعيشها، وصاحبة هذا الرأي هي الناقدة الفرنسية (سيمون دي بوفوار) في كتابها (الجنس الآخر)^(١)، وفيه تقول: "إن الواحدة من النساء لا تولد امرأة، لكنها تصبح فيما بعد امرأة"، فسمات الأنوثة كما تراها بوفوار لا تولد مع النساء، وإنما تتشكل أثناء سيرورة حياتهن عندما تجبرهن الظروف والثقافة السائدة في المجتمع على ذلك، من خلال الجنوسة لا الجنس^(٢).

وهذا يعني أن الأسلوب الأنثوي الخاص بالكتابة هناك من يفسره بميل غريزي فطري لدى المرأة بصور وأشكال لغوية محددة، وهناك من يحيله إلى مجموعة الظروف التي تعيشها المرأة في وسطها الاجتماعي، تلك الظروف التي تحكمها بأطر خاصة تميزها عن الأطر التي يتحرك فيها الرجل في ذلك الفضاء الاجتماعي، ومع هذا فإن الإبداع الشعري النسائي قليل إذا ما قورن بإبداع الرجل، ويرد بعض النقاد ذلك لكون الشعر منشؤه الابتكار والخلق والإبداع،

(١) يعد هذا الكتاب من أوائل الكتب النسوية في المدرسة النسوية الكلاسيكية، صدر عام

١٩٤٩م.

(٢) ينظر: الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي (ص ٣١).

والمرأة لم تبرع في ذلك بقدر ما برعت في الفنون القائمة على التقليد والمحاكاة كالقص والتمثيل والغناء، فإن الإجادة فيها لا تتوقف دائماً على ابتداع وإنشاء، وقد تتم أحياناً بملكة المحاكاة، ولهذا برع بعض النساء في كتابة القصص، وفي أداء الأدوار المسرحية، ولكنهن لم يبرعن في الشعر على التخصيص^(١).

بينما يرجعه بعضهم إلى ما تعانيه المرأة من قهر وظلم وتهميش في مجتمعها الذكوري في مختلف الحضارات، ومنه المجتمع العربي.

إن الغياب الذي يكتنف المشهد النقدي في معالجة الإبداع الشعري النسائي في العالم العربي، سيؤدي حتماً إلى الانغلاق، ومن ثم التهميش والإقصاء لتلك المدونة الشعرية النسائية وما تتميز به من شعرية خاصة.

ولعل من أسباب ذلك غياب الإطار النظري للكتابة النسائية الذي أحدث مصطلحات متعددة بمسمياتها ومفاهيمها ومآلاتها، فظهر (الأدب النسائي، أدب المرأة، الأدب النسوي، الأدب الأنثوي، الأدب الجنوسي "الجندر").

هذا التعدد في التسمية أحدث اضطراباً في الدلالة والاستعمال، وأمام هذه التسميات المتعددة نجد أن هناك من الكتاب والكاتبات من وقف في وجه تسمية الكتابة النسائية بأي اسم من تلك الأسماء، بدعوى أن الأدب لا يقبل التصنيف على أساس الجنس؛ لأن ذلك سيفضي لتجنيس الأدب، فالأدب أدب مهما كان كاتبه رجلاً كان أم امرأة، يتعامل معه النقد بأدوات واحدة، كما أن هذه الطبيعة الإجناسية للتصنيف ستعطي حكماً هامشياً لهذا المحدد وهو الأدب النسوي مقابل مركزية يتحكم فيها الرجل بأدبه الذكوري.

ولعل هذا التخوف الذي نادى به كثير من النسويات العربيات، مرده إلى خشية أن تصنف الكتابة والإبداع النسائي بالدرجة الثانية بعد كتابة الرجل، نقول

(١) ينظر: المرأة ذلك اللغز، عباس العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٠م، (ص ٥٧).

النظرية النسوية

هدى وصفي: "إن قهر المرأة أنشأ أدباً يسمى بالأدب النسائي، وأراد الرجل أن يجعل المرأة تقف عند بابه، فسمى كل إبداع المرأة بهذه التسمية"^(١).

أما عادة السمان فتعتبر مصطلح الأدب النسائي خدعة كبيرة من النقاد، وتصف الأدب الذكوري بالعنصري، فنقول: "يخيل إليّ أن دراسة حول الأدب الذكوري العنصري العربي صارت أمراً ملحاً، سنكتشف خدعة كبيرة أسماها النقاد (الأدب النسائي) في حين أن أكثر ما يكتبه الرجال هو (أدب رجالي) يتناول المرأة العربية تناولاً فجاً، ويحولها إلى نماذج سطحية، قاصراً عن تصوير عالمها الحقيقي الداخلي والاجتماعي، ويقع باستمرار في فخ التمجيد الرومانسي المفرط، أو التحقير المبالغ به"^(٢).

في حين تعزو المؤيدات لهذا المصطلح تأييدهن للحركة التصحيحية في العالم العربي التي نادى بإعطاء المرأة حقوقها كاملة، والتي تقرر في أجندتها أنه لا بد أن تتمتع المرأة بخصوصية في الإبداع، تجعل من الضروري مفايزة إبداع المرأة عن إبداع الرجل؛ بحيث يتحدد على ضوءه القيمة الإبداعية للنص النسوي، تقول لطيفة الزيات: "لقد رفضت دائماً التمييز بين الكتابات النسائية وكتابات الرجل، رغم شعوري أن النساء والرجال يكتبون بشكل مختلف، ولكن الآن وبعد أن أصبح من الممكن والمحتمل تحقيق المساواة بين النساء والرجال يمكن لنا أن نعترف بالطرق المختلفة التي كتب بها الرجال والنساء دائماً، دون أن يعني هذا بأن أحدهما متفوق على الآخر"^(٣).

(١) اعترافات نساء أدبيات، أشرف توفيق، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٨م، (ص ١٥).

(٢) الأعماق المحتلة، عادة السمان، منشورات عادة السمان، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣م، (ص ٢٣).

(٣) ١٠٠ عام من الرواية النسوية (١٨٩٩ - ١٩٩٩م)، د. بثينة شعبان، دار الآداب، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م، (ص ٢٤).

د . عبد الله محمد الغفيس

وتقول بثينة شعبان: "حققت النساء العربيات في الأدب أكثر من أي مجال آخر هوية وصوتاً متميزاً وتاريخاً طويلاً من الإبداع والتميز"^(١).

أما عائشة عبد الرحمن فترجع السمات الخاصة لشعر المرأة إلى إرث أمومي غائر في التاريخ الإنساني وذلك عند حديثها عن غزل الشاعرة نازك الملائكة فتقول: "والحزن الذي يسيطر على شعر نازك أصيل في حواء المؤودة، والشجن المر الذي ينضح به كأسها ليس إلا ميراثاً طبيعياً من أمهات لنا وجدات غيرت عليهن قرون وهن مهدرات المشاعر، مهدرات الوجود العاطفي، إلا على النحو الذي أراده لهن الرجال"^(٢).

إن محاولة تشكيل ميراث من الأمهات والجدات يتسم بسمات خاصة في الرؤى والمشاعر ما هو إلا امتداد لرؤية النسوية الغربية في وجوب تشكيل كيان خاص بالمرأة، لا يخضع للإرث الأبوي الممتد، وإنما للإرث الأمومي المهمل عبر التاريخ.

ومن المؤيدين لمصطلح الأدب النسائي د. إبراهيم محمود خليل، الذي عرف الأدب النسوي بقوله: "هو الأدب الذي يؤكد وجود إبداع نسائي وآخر ذكوري لكل منهما هويته وملامحه الخاصة، وعلاقته بجذور ثقافة المبدع، وموروثه الاجتماعي والثقافي، وتجاربه الخاصة من نفسية وفكرية"^(٣).

ويوسع إبراهيم خليل مفهوم الأدب النسوي، فيقول: "وقد يتسع مفهوم الأدب النسوي ليشمل الأدب الذي تكتبه النساء أو الأدب الذي يكتبه الذكور عن المرأة

(١) المرجع السابق (ص ٢٣).

(٢) الشاعرة العربية المعاصرة، د. عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، (ص ٢٨).

(٣) النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، د. إبراهيم محمود خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠٠٣م، (ص ١٣٤).

النظرية النسوية

من أجل أن تتلقاه المرأة، وكل أدب يعبر عن نظرة المرأة لذاتها، أو نظرتها للرجل وعلاقتها به، أو يهتم بالتعبير عن تجارب المرأة اليومية والجسدية ومطالبها الذاتية فهو أدب نسوي"^(١).

ويأتي إبراهيم خليل على ذكر النقد النسوي، فيعرفه بقوله: "هو كل نقد يهتم بدراسة تاريخ المرأة، وتأكيد اختلافها عن القوالب التقليدية التي توضع من أجل إقصاء المرأة، وتهميش دورها في الإبداع، ويهتم إلى جانب ذلك بمتابعة دورها في إغناء العطاء الأدبي، والبحث عن الخصائص الجمالية والبنائية واللغوية في هذا العطاء"^(٢).

فهو هنا يشير إلى مفهومين للنقد النسوي، أحدهما فكري، والآخر أدبي، وكلاهما متصلان بالمرأة فكراً وإبداعاً.

وأمام هذه التباينات في المواقف ما بين معارض ومؤيد لا بد أن نقرر هنا حقيقة، وهي أن الأدب النسائي أو النسوي عموماً يُنظر إليه من خلال ثلاثة أطر مختلفة، فهو إما أن يعبر عن الأدب الذي تكتبه المرأة، أو الأدب الذي يكتب عن المرأة، أو الأدب الذي يكتب للمرأة (أي لتقرأه المرأة)؛ لأنه يقف مع قضاياها، وتختلف الرؤى وتتباين الاتجاهات وفقاً للمنظور الذي ينظر إليه هذا الكاتب أو ذاك لمفهوم الأدب النسوي.

إلا أن هذه الأطر الثلاثة ليست كافية لتحديد ما هو نسوي، وما هو غير ذلك، فقد تقبل المرأة على قراءة كتب لا يمكن أن توصف هذه الكتب بأنها نسوية؛ لأنها غير متعاطفة مع المرأة، وقد تكتب امرأة رواية مثلاً وهي أبعد ما تكون عن ملامح الأدب النسوي، وهذا ما تحدثت عنه (ماري إيجلتون) في كتابها (النظرية

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) نفس المرجع (ص ١٣٥).

الأدبية النسوية^(١)، وفيه حددت النص النسوي تحديداً دقيقاً بأنه ذلك النص الذي يعبر عن التجربة الخاصة التي تعكس واقع حياة المرأة بشكل حقيقي وأصيل، ليعبر عن هوية المرأة وواقع حياتها، فالمرأة لا تنتظر إلى الأشياء كما ينظر إليها الرجل، وإنما لها عدستها الخاصة بها، التي تصف الأشياء من حولها وتلونها بألوانها ومشاعرها وخبوطها وظلالها.

وهذا أمر طبيعي، فالنص النسائي يتعامل مع مكونات الحياة وفق طبيعة التجربة الخاصة بالمرأة والتي تتميز بها عن الرجل، وهو يمثل رسالة من مخاطب مبدع إلى مخاطب مختلف، ويولد هذا النص وله ملامح خاصة تتحدد من خلال مجالات متعددة هي: المجال الصوتي، والمجال الدلالي، والمجال الهيكل^(٢)، ويمكن أن نزيد عليها المجال التداولي الذي يرتحل بالنص في حركة مستمرة لإنتاج المعنى حسب متلقيه في الزمان والمكان حيث ينتج دلالات لا تنقيد بسكونها وتحديدها بمعان محددة، فالمعاني للدوال متعددة بتعدد القراء للنص، والمعنى لا ينتج من خلال الدلالة المباشرة للألفاظ والتراكيب، وإنما ينتج المعنى الحقيقي للنص من خلال الاستعارات والتعارضات والمفارقات والغيابات والرموز داخل النص، وغيرها من أساليب إنتاج المعنى وفق نظرية التفكيك.

كما يجب أن ينظر للنص الإبداعي لا على أنه نص مفرد مغلق يدور حول نفسه، وإنما ينظر إليه على أنه نص جمعي مفتوح قابل لإعادة القراءة، وإنتاج المعنى من المتلقي، ليستمر النص في عملية مستمرة لإنتاج المعنى، وفق القراءات المتعددة في فضاءها الزماني والمكاني وفق نظرية التلقي.

(١) ينظر: نظرية الأدب النسوي، ماري إيجلتون، ترجمة: عدنان حسن - رنا بشور، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٦م.

(٢) ينظر: في ماهية النص الشعري إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي، محمد عبد العظيم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م، (ص٧).

النظرية النسوية

فالنص يمنح مفاتيحه للولوج إلى عالمه لمن يحسن التعامل مع ثنائياته ومفارقاته وقيماته التي تحدد مساره، لتقديم رؤية تحمل تصورات متنوعة ومعان متشاكلة ومتباينة، وهذا ما يعطي النص القدرة على الحياة كي يبقى مصاحباً للإنسان في رحلته في الزمان والمكان.

أما ما يتعلق بالنقد النسوي الذي يعالج تلك الكتابات، فإن الحقيقة القارة في الدرس النقدي أنه لم يحدث في تاريخ النقد على اختلاف أنواعه، سواء أكان هذا النقد علمياً أو ثقافياً أو أدبياً أو اجتماعياً أو سياسياً أن ربط هذا النقد بالنوع والجنس، حتى جاءت الحركة النسوية بتنشيطاتها وارتداداتها وتحولاتها في الغرب، لتستخدم الإبداع والنقد كسلاح من أسلحتها التي تقاوم بها في معركتها مع السلطة الأبوية، فظهر النقد النسوي الذي هو جزء من منظومة النقد الثقافي في مرحلة ما بعد الحداثة، التي اعتمدت فلسفة التفكيك منهجاً لاشتغالها، والتي شككت بمبدأ الإرث النظري للنقد الأدبي، فالمعنى لكل خطاب في التفكيكية هو نتيجة العلاقة بين الحضور والغياب، أو بين المعنى المتحقق والمعنى المرجأ، وما دام المعنى في النص الأدبي غير ثابت وغير نهائي، فهذا يفتح الباب للتفسيرات والتغييرات التي تجعل الباب مفتوحاً لتجاوز كل المعايير والقوالب الجامدة، ولهذا شرع النقد النسوي يعيد قراءة الأدب بصفة عامة منتبهاً صورة الرجل والمرأة فيه بغية الكشف عما فيه من انسجام مع الأيديولوجية الأبوية أو اختلاف^(١).

ويعد كتاب (الجنس الآخر) (لسيمون دي بوفوار) أول من تحدث عن قضايا المرأة في الغرب، وفيه تقرر أن الرجل استحوذ على الجنس الأدبي، واستحوذ كذلك على اللغة، وترك للمرأة أن تعبر عن نفسها من خلال ما يراه هو لها، ومثلها فعلت (هيلين سيكسو) فقد جاءت دعواتهن مع غيرهن من النسويات أنه

(١) ينظر: النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك (ص ١٣٦).

يجب على المرأة أن تكتب نفسها، وأن تكتب عن النساء، وأن تجلب النساء للكتابة من خلال الوقوف في وجه النظرة البطريركية الأبوية للمرأة^(١).

حدث ذلك في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي للمطالبة بتحرير المرأة ومساواها مع الرجل، وحررتها الاجتماعية، هذا الحراك ظهر كما أشرنا من خلال كتابات فكرية وإبداعية سواء ما كتبه المرأة من فكر وإبداع، أو ما كتب عنها سواء أكان كاتبه رجلاً أم امرأة.

فجاء النقد النسوي ليعالج تلك الكتابات، وإبراز صورة المرأة في الأدب الذي كتبه الرجل، وكذلك في تلك النصوص التي أنتجتها المرأة؛ لإنصاف المرأة والوقوف في وجه تهميشها، والتمييز ضدها بسبب أنوثتها، في الفترة من السبعينيات وحتى تسعينيات القرن الماضي، ومن ذلك كتابات (ماري إيجلتون) في كتابها (النقد الأدبي النسائي)، الصادر عام ١٩٩٢م؛ حيث ترى أن المرأة خضعت عبر التاريخ للنظريات الأبوية التي يصنعها الرجل مقابل سلب النظريات النسوية التي يجب أن تصنعها المرأة لنفسها^(٢).

وذلك من خلال ما يعرف بالنظرية النسوية التي تتناول التباينات الاجتماعية التي تتعرض لها المرأة في المجتمعات الإنسانية، فظهر في الغرب نظريات نسوية مختلفة ومتطورة، من ستينيات القرن العشرين وحتى نهايته، ومن أهمها النظريات النسوية الإصلاحية (البرالية، الماركسية)، وهذه النظريات تركز على عمل المرأة وأساليب استغلالها في المجتمعات الغربية، وإن اختلفت آليات النظرة لهذا الاستغلال من حيث الأسباب والعلاج، في محاولة للارتقاء بأوضاعها المعيشية وتحسين ظروفها، وهناك النظريات النسوية المقاومة كالنسوية (الراديكالية) التي

(١) ينظر: النقد النسوي وبناء المفاهيم المضادة، د. أحمد صبرة (ص ٣٠٧).

(٢) ينظر: المصطلحات الأدبية الحديثة، محمد عناني، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٦م، (ص ١٨٨).

النظرية النسوية

تركز على قهر المرأة والعنف الموجه ضد النساء من خلال تأثير البنية الأبوية على العلاقة بين الرجل والمرأة، وهناك النظريات النسوية (المتردة) وهي التي تمثل الموجة الثالثة من النسوية، وبدأت في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، لتكون من أكثر التيارات النظرية المؤثرة في العلوم الاجتماعية والسياسية في مرحلة ما بعد الحداثة، والتي عنيت بالنساء وحقوقهن ممن لم يتم تناولهن في النظريات السابقة كالنساء من الفقراء والملونين، والمنتمين للعالم الثالث، من خلال النسوية (المتعددة الأعراق)، و(نسوية ما بعد الحداثة)، و(النسوية الغرائبية) وغيرها^(١).

هذه النظريات النسوية المتباينة في نظرتها للمرأة هي ما أحدث ضبابية وعدم وضوح في النظرية النسوية في الغرب، ولم تنتج نقداً نسوياً واضح المعالم؛ والسبب في ذلك يرجع إلى أن مرجعية تلك النظريات النسوية كانت فلسفات متعددة، كالفلسفة الليبرالية والماركسية والراديكالية والوجودية وغيرها، وهذا ما جعل الوجه الفكري الفلسفي للحركة النسائية المرتبط بالسياسة يطغى على وجهها الأدبي، وهذا ما جعل الأدب النسوي لا يحقق غاية في مآلاته، سواء كتبه رجل أم امرأة، فهو غير واضح المعنى بالشكل الكامل، ولا يقف على أرض صلبة يستطيع من خلالها مواصلة التشكل والنضج، وهذا ما كشفت عنه الكتابات الممتدة عبر قرن من الزمن تقريباً، والتي دعت لإخضاع المبدعات والكاتبات لأهداف محددة تتبناها النظرية النسوية، مع أن الإبداع هو حالة خلق يجب ألا يخضع لأهداف مسبقة تحكمه وتتحكم في مسار تجلياته، فالنص الأدبي عبر رحلة نقده وتحليله عاش داخل أنواع من النقد كالنقد اللغوي والبنوي والتفكيكي وغيرها، وتعايش مع

(١) ينظر: مقال النظرية النسوية ودراسة التفاوت الاجتماعي، صالح سليمان عبد العظيم، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد ٤١، ملحق ١، ٢٠١٤م، (ص ٦٣٩-٦٤٩).

هذه الأنواع من النقد بسيرة نقدية معرفية، إلا أنه لم يتصالح مع النقد النسوي الذي لم يطمئن أن يعيش في كنفه لأنه- أي النقد النسوي- كان مثقلاً بالسياسة وتحولاتها في الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين، فلم تتحدد البوصلة التي من خلالها يحكم على هذا النص أو ذلك بأي حكم نقدي واضح، بل تعددت الأحكام وتباينت الرؤى في النظر إلى النص الأدبي حسب الخلفية السياسية والفلسفية لهذا الناقد أو ذلك.

إلا أن هذا النقد لم يقف مكتوف الأيدي، بل أدخل هذا النص الأدبي ضمن إطار اشتغاله سواء أكان كاتب هذا النص امرأة أم رجل، وكان مدار هذه النصوص يدور حول تجليات ومظاهر اضطهاد الرجل للمرأة في تلك النصوص النسوية من قبل نقاد المنهج النقدي النسوي.

حتى جاءت حركة ما بعد النسوية، والتي بدأت في الثمانينيات من القرن العشرين، وتبلورت بشكل واضح في نهاية ذلك القرن لتتجاوز تناقضات النسوية بدعوتها لمناصرة المرأة دون أن تكون ضد الرجل؛ إذ لا علاقة بين الجنس والمعايير الأخلاقية والاجتماعية والثقافية، بما يعرف عندها بالموقف من تجنيس الأدب، وأن الأدب بنصوصه الإبداعية يجب أن ينظر إليه بمعايير نقدية وأدبية واحدة بغض النظر عن قائلها، رجلاً كان أم امرأة.

ومع هذه الجهود لحركة ما بعد النسوية، إلا أن الأزمة بقيت قائمة في الحركة النسوية وما أفرزته من أدب نسوي في موجاتها الثلاث، ذلك أن قوة الدافع الفكري والاجتماعي والثقافي كانت مختلفة متناحرة فيما بينها، فهي أقرب إلى التهافت منها إلى البناء.

لذلك فإن النقد النسوي لا يؤثر تأثيراً واضحاً في البيئات التي أنتج فيها؛ إذ لم يستطع أن يتجاوز مراقبة الظاهرة إلى الغوص في وسائل اشتغالها، وذلك من خلال حضور العقل المفكر المتأمل الذي لا يخضع لمهيمانات التفكير التي وقعت

النظرية النسوية

الحركات النسوية في فحده، ولم تستطع الخروج منه، سوى مرحلة ما بعد النسوية في تجليات أطروحاتها التي حاولت أن تخرج فيها من مستنقع الإرث النسوي.

أما عن حضور هذا المصطلح (النقد النسوي) في الثقافة العربية المعاصرة بخلفياته ومرجعياته، فلا نكاد نجد له أثراً مؤثراً يذكر، فمن القار في فلسفة العلوم أنه في رحلة المصطلح وانتقاله من ثقافة ولغة إلى ثقافة ولغة أخرى تحدث تحولات في دلالاته بفعل إشكالات الترجمة والخصوصية الثقافية والتباينات في البيئة التي نبت فيها هذا المصطلح أو ذلك، ينعكس أثرها على محاولة استنباطه في بيئة أخرى مغايرة في ميادينها التطبيقية التي يشتغل بها هذا المصطلح.

وهذا ما حدث مع مصطلح النقد النسوي في رحلة انتقاله من الغرب إلى المشرق العربي، فلقد تشكل في الغرب بمحطاته الثلاث عبر عقود من الزمن شكلتها نظريات ومناهج فلسفية تبنتها مدارس سياسية متصارعة ومتناقضة في رؤيتها، هذا التناقض والتشتت في الرؤى والأحكام لم يستطع النقد العربي إزاءها أن يستزرع ذلك المصطلح (النقد النسوي) في البيئة العربية؛ لأنه لا يحمل مقومات الحياة في بيئة لا يمتلك فيها أدواته النقدية ورؤاه الفلسفية والسياسية، يضاف إلى ذلك ما تحدثه فوضى تعدد الترجمات من تشظ في الدلالة ينتج عنه تحولات مفاهيمية مضطربة وغير قارة في الاصطلاح النقدي.

فإذا كان المصطلح النقدي يخضع للتغيير في البيئة الواحدة بفعل التطور الدلالي للألفاظ عبر الزمن، فمن باب أولى تؤدي رحلة المصطلح من بيئة لأخرى تغيرات أعمق وتشظيات أعقد في فهم ونجاعة هذا المصطلح المرتحل.

* *

قائمة المراجع

١. أزمة الأدب النسوي، تأليف: د. نبيل راغب، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.
٢. الأسس الفلسفية للفكر النسوي الغربي، خديجة العزيمي، دار بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
٣. اعترافات نساء أديبات، أشرف توفيق، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٨م.
٤. الأعماق المحتلة، غادة السمان، منشورات غادة السمان، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
٥. الشاعرة العربية المعاصرة، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.
٦. في ماهية النص الشعري إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي، محمد عبد العظيم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
٧. ١٠٠ عام من الرواية النسوية (١٨٩٩ - ١٩٩٩م)، د. بثينة شعبان، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
٨. المرأة ذلك اللغز، عباس العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٠م.
٩. المصطلحات الأدبية الحديثة، محمد عناني، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.
١٠. المواطنة في لبنان، أنطوان الفرزلي، دار الجديد، بيروت، ٢٠٠٠م.
١١. النسوية وما بعد النسوية، تأليف سارة جامبل، ترجمة: أحمد الشامي، مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

النظرية النسوية

١٢. نظرية الأدب النسوي، ماري إيجلتون، ترجمة: عدنان حسن - رنا بشور، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٦م.
١٣. النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، د. إبراهيم محمود خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠٠٣م.
١٤. النقد النسوي وبناء المفاهيم المضادة، أ.د. أحمد صبرة، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، طبعة ٢٠١٦م.
١٥. (مقال) الأدب النسوي وهموم المبدعات، رشا كير وأمينة عادل، مجلة البيان، عدد يوليو ٢٠١٤م.
١٦. (مقال) النظرية النسوية ودراسة التفاوت الاجتماعي، صالح سليمان عبد العظيم، مجلة دارسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجامعة الأردنية، عمان، المجلد ٤١، ملحق ١، ٢٠١٤م.

* * *